الفصل الأول

رحلة العائلة المقدسة

حقيقة كتابية وتاريخية وأثرية

- حقيقة كتابية.
- حقيقة تاريخية.
- حقيقة أثرية.
- بركات روحية.
- مفاهيم لاهوتية.
- تأثيرات حضارية.
- مشقات كثيرة.
- القيم الإنسانية.

obeikandl.com

obeikandl.com

منذ ألفى سنة تقريباً ومع بداية القرن الأول الميلادى، جاءت العائلة المقدسة إلى أرض مصر قادمة من بلاد فلسطين .. وتباركت أرض مصر بقدوم العائلة المقدسة إليها .. وفي رحاب وادى النيل .. وفوق روابى ووديان أرض مصر الطيبة، وعلى ضفاف نيلها العظيم، وجدت العائلة المقدسة الأمان والحماية ... واستقبلت مصر فى وقار وإجلال وترحاب أعظم زائر فى تاريخها كله ... ومنحت العائلة المقدسة البركة لأرض مصر وشعبها «مُبَارَكٌ شَعْبِي مِصْرُ» (إش ١٩ : ٢٥)، وكان مجئ السيد المسيح مع أمه العذراء ويوسف النجار هو أعظم حدث فى تاريخها كله، ولم تكن زيارة الرب لأرض مصر هى مجرد رحلة هروب بل كان له رسالة وعمل فى أرض مصر، وما زالت أرضها الطيبة تحتفظ بذكريات وبركات هذه الرحلة التاريخية الفريدة والمؤكدة كتابياً وتاريخياً وأثرياً.

حقيقة كتابية :

حيث وردت نصوص عنها فى العهد الجديد: في الإنجيل للقديس متى «إِذَا مَلاَكُ الرَّبِّ قَدْ ظَهَرَ لِيُوسُفَ فِي حُلْمٍ قَائِلاً: «قُمْ وَخُذِ الصَّبِيَّ وَأُمَّهُ وَاهْرُبْ إِلَى مِصْرَ، وَكُنْ هُنَاكَ حَتَّى أَقُولَ لَكَ. لأَنَّ هِيرُودُسَ مُزْمِعٌ أَنْ يَطْلُبَ الصَّبِيَّ لِيُهْلِكَهُ. «فَقَامَ وَأَخَذَ الصَّبِيَّ وَأُمَّهُ لَيْلاً وَانْصَرَفَ إِلَى مِصْرَ. وَكَانَ هُنَاكَ إِلَى وَفَاةِ هِيرُودُسَ. لِكَيْ يَتِمَّ مَا قِيلَ مِنَ الرَّبِّ بِالنَّبِيِّ الْقَائِلِ: «مِنْ مِصْرَ دَعَوْتُ ابْنِي» (مت ٢: ١٣ـ ١٥) .

ووردت نبوات عنها فى العهد القديم: «هُوَذَا الرَّبُّ رَاكِبٌ عَلَى سَحَابَةٍ سَرِيعَةٍ وَقَادِمٌ إِلَى مِصْرَ، فَتَرْتَجِفُ أَوْثَانُ مِصْرَ مِنْ وَجْهِهِ، وَيَذُوبُ قَلْبُ مِصْرَ دَاخِلَهَا» (إش ١٩ : ١)، «مِنْ مِصْرَ دَعَوْتُ ابْنِي» (هو ١١: ١)، (مت ٢: ١٥).

حقيقة تاريخية :

حيث وردت تفاصيل الرحلة فى ميامر قديمة كتبها آباء الكنيسة، ومن أقدم الميامر التى وردت بها تفاصيل عن رحلة العائلة المقدسة : ميمر البابا ثاؤفيلس الإسكندري البطريرك الـ٢٣ (٣٨٥ـ٤١٢م)، وميمر البابا تيموثاؤس البطريرك الـ٢٦ (٤٥٨ـ٤٨٠م)، وميمر الأنبا قرياقوس (هرياقوص) أسقف البهنسا (القرن السابع)، وميمر الأنبا زخارياس أسقف سخا (نحو ٦٩٣ـ ٧٢٣م)، إلى جانب ماذكره السنكسار القبطى والدفنار القبطى (تحت يوم ٢٤ بشنس)، وما ورد فى هستوريا موناخورم فى مصر للرهبان السبعة (القرن ٤)، وفى تاريخ الكنيسة لسوزومين (القرن ٥)، وما كتبه موهوب بن منصور فى تاريخ البطاركة (القرن ١١)، وتاريخ الكنائس والأديرة لأبو المكارم (القرن ١٢/١٣).

حقيقة أثرية :

حيث ما زالت هناك آثار تؤكد مجئ العائلة المقدسة لأرض مصر منها : أديرة وكنائس اثرية وهياكل ومذابح أثرية ومغائر قديمة، ومنها صخور وأحجار عليها علامات ونقوش،

إلى جانب حفائر وأطلال، وآبار وأشجار، وهذه الآثار تمتد على طول البلاد الواقعة على مسار الرحلة فى شبه جزيرة سيناء وفى منطقة القاهرة الكبرى وفى الوجهين البحرى والقبلى، ويضاف لذلك الأيقونات الأثرية والمخطوطات والقطع الفنية التى تصور رحلة العائلة المقدسة.

بركات روحية :

أن الهروب لأرض مصر كان لحكمة فى التدبير الإلهى، ولم يكن ضعفاً أو سلبية، ولكن الرب أراد أن يعلمنا حكمة الابتعاد عن مصادر الشر، وفكرة الهروب عن الشر هي مبدأ روحى في الكتاب المقدس، فالصديق «يبصر الشر فيتوارى» (أم ٢٢ : ٣)، (٢٧ : ١٢) هذا المبدأ الروحي أراد السيد المسيح أن يعلمه للجميع، ويمكن وصف الهروب على أنه حكمة وتفضيل للسلام، فالسيد المسيح أراد أن يرشدنا لإختيار طريق السلام، ومع مبغضي السلام كان صاحب سلام، بمعنى أن الإنسان الروحي يُفضل السلام عن الحرب التي بلا منفعة، وليس الهروب خوفًا ولا جُبنًا ولا ابتعادًا عن المواجهة، والدليل على هذا أن السيد المسيح واجه الشيطان في عبادة الأوثان التى كانت منتشرة فى أرض مصر، وبدد الأصنام في مصر، ولم يكن الهروب بسبب الخوف أو العجز.

وأيضاً من بركات الهروب إلى مصر، أنه مهما كان حجم حيل المضاد ومؤامرات الأشرار، فأن الحفظ الإلهى أقوى وأعظم، وأن التدبير الإلهى يعلو فوق التفكير البشري، وأن اللّه يتدخل فى الوقت المناسب، وبالطريقة المناسبة، وقد أراد اللّه أن يمنح أرض مصر بركات عظيمة. وأصبحت بلادنا مصر أرض مباركة، يملأ اللّه أرضها بالخير والسلام والأمان، وبالنماء والرخاء. وأيضاً كانت تحركات العائلة المقدسة بإعلانات سمائية، ومن ذلك نتعلم السير بحسب القصد الإلهي، والإرشاد الإلهي ..

مفاهيم لاهوتية :

إلى جانب البركات الروحية ، تشتمل رحلة العائلة المقدسة أيضاً على مفاهيم لاهوتية منها: تحقيق النبوات التي وردت في أسفار العهد القديم، وسقوط الأوثان والأصنام وارتجافها أمام وجه السيد المسيح ، كل ذلك يؤكد سلطانه وقدرته أنه الكلمة المتجسد. لقد سقطت الأوثان وتحطمت فى داخل معابدها فى أكبر معاقل للوثنية فى مصر، وشعر الوثنيون أن هيبة آلهتهم قد سقطت، وأن هناك قوة أقوى من آلهتهم، وتحققت نبوة الكتاب المقدس «يذوب قلب مصر داخلها» (إش ١٩: ١)، وأيضاً المعجزات والعجائب التي حدثت أثناء الرحلة. فرغم مشقات الرحلة وآلامها كان لاهوت السيد المسيح واضحاً وجلياً في دخوله البهي والمصحوب بالعجائب إلى أرض مصر، وأيضاً كانت الرحلة بإرشادات من السماء من خلال ملاك الرب ليوسف البار، وكل ذلك يشتمل على جوانب لاهوتية ..

تأثيرات حضارية :

بلا شك أن رحلة العائلة المقدسة في أرض مصر هي من أهم الركائز الأساسية للحضارة القبطية المصرية حيث أنها أعطت لهذه الحضارة عمقًا ورسوخًا واستمرارية، لأن السيد المسيح بذاته جاء إلى أرضها وباركها، وتحطمت أوثان مصر خلال زيارته لها، وبهذا بدأ التغيير العقائدى والفكرى من المعتقدات الوثنية إلى بزوغ الإيمان المسيحي باللّه الواحد، وكأنه بيديه المباركتين يطهر أرض مصر من الوثنية، ويضع حجر الأساس للكنيسة المصرية، ويفتتح الصفحة الأولي في قبولها للإيمان المسيحي، وأصبحت كنيسة مصر منذ بزوغ فجر المسيحية هي الحاضنة للإيمان القويم، وصار لهذه الزيارة أصداؤها القوية على مر العصور والسنين، في مصر بصفة خاصة ولدي شعوب الأرض قاطبة بصفة عامة، وأخذت أرض مصر مكانتها بأنها الأرض التي قدمت الملاذ والملجأ والحماية للسيد المسيح والعائلة المقدسة .. ومنذ وقت مبكر في تاريخ المسيحية أقيمت الكنائس والأديرة على امتداد مسار العائلة المقدسة في أرض مصر، مما اعتبر من عوامل نشأة وتجمع واستقرار لمجتمعات بشرية وتجمعات عمرانية ارتبطت ببعض مواقع ومحطات هذه الرحلة المباركة، وما تبع ذلك من تأثيرات جغرافية وديموجرافية وحضارية .. وكان لرحلة العائلة المقدسة تأثيراً علي تسمية بعض البلاد والأماكن التي مرت بها، واستطاع الشعب المصري منذ القرون الأولي للمسيحية أن يتمسك ويتشبث ويدافع عن أرضه المباركة التي تقدست بزيارة السيد المسيح والعائلة المقدسة إليها، واعتبر ذلك بركة خاصة لأرض مصر، وترسخ في وجدان الشعب المصري مكانة وقيمة أرض مصر المباركة والكنيسة القبطية المجيدة.. وكانت للرحلة المباركة تأثيراتها على جوانب الحضارة القبطية ومنها: الأيقونات والأعمال الفنية الخاصة بهذه الرحلة، ومن النادر أن تجد فنانًا قبطيًا ليس له عمل فني خاص برحلة العائلة المقدسة، وأيضًا كتابات الأدب القبطي من الميامر والمخطوطات والنصوص المكتوبة باللغة القبطية ، حيث وجدت كتابات أدبية باللغة القبطية خاصة بهذه الرحلة، وترجم جزء كبير منها إلى اللغات السريانية والحبشية والعربية واللغات الحديثة، وأيضًا الألحان والمدائح والقراءات والطقوس الكنسية المرتبطة بهذه التذكارات والمناسبات، إلى جانب الاحتفالات الشعبية السنوية في مناسبات وتذكارات رحلة العائلة المقدسة، والاكتشافات الأثرية للكنائس والأديرة المرتبطة بمسار الرحلة، والتصميمات والطرز المعمارية القبطية المستوحاة من تاريخ وآثار الرحلة .. كل ذلك يعتبر من جوانب الحضارة القبطية المصرية التي ارتبطت بهذه الرحلة المباركة ..

مشقات كثيرة :

إنها رحلة طويلة وشاقة .. الطرق وعرة .. والدابة ضعيفة .. والطفل رضيع .. والأم بهدوئها وطمأنينتها تحتضن طفلها .. وقائد الرحلة رجل كبير السن تعوزه القوة لمواجهة مشقات هذه الرحلة الطويلة .. كان الموت يطارد الطفل الإلهى منذ بداية تجسده .. وكأن ظلال الصليب بدأت مبكرة منذ ميلاده .. كأن ظلال الصليب تخيم على أرض مصر .. مصر حيث صلب ربنا أيضاً (رؤ ١١ : ٨) .. مصر أرض الفصح القديم تحتضن فصحنا الجديد .. حمل الرب صليب الهروب بكل آلامه ومشقاته ومتاعبه .. وسار به فى أرض مصر .. شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً .. وكأنه يرسم بعلامة الصليب فى اتجاهاتها الأربعة .. وأخذت العائلة الصغيرة تتنقل بين البلاد .. هذا باب مغلق وذاك مفتوح .. هذا وجه باسم يستقبلهم فى ترحاب وذاك وجه غاضب يرفض مساعدتهم .. وليس لابن الإنسان أين يسند رأسه ؟ .. وأين زاد الطريق الطويل ؟ .. هذه لقمة لينة وأخرى يابسة .. وأين الماء ؟ .. وأين الظلال الوارفة من الشمس المحرقة؟ .. أحياناً يكون المسير فى مروج خضراء وأحياناً فى صحارى وجبال ووديان .. والمخاطر تحيط بهم من كل اتجاه .. مخاطر من الأشرار واللصوص وقطاع الطرق .. ومخاطر من مطاردة الجنود الذين أرسلهم هيرودس .. ومخاطر من حيوانات الصحراء المؤذية .. ومخاطر الجوع والعطش .. وتقلبات المناخ من الحرارة الشديدة إلى البرد القارص .. وتضاريس الصحراء برمالها الناعمة احياناً، وتضاريسها الجبلية والمحجرة والصخرية أحياناً أخرى.. وعبور نهر النيل بفروعه التى كانت سبعة فروع وقتذاك .. ومخاطر ركوب القوارب الصغيرة .. وفى تلك الظروف شديدة الصعوبة كانت يد الله تعمل، فحدثت عجائب ومعجزات صنعها الرب فى أرض مصر.. منها سقوط الأصنام وتحطمها فى معابد وبلاد كانت تعتبر من معاقل الوثنية ومنها: بوبسطة وسمنود وأون ومنف والبهنسا والأشمونين وغيرها .. مما جعل الوثنيون يغضبون ويطاردون تلك الأسرة الصغيرة من مكان إلى آخر.. ومن العجائب أيضاً أن تنبع آبار مياه عذبة فى أماكن قاحلة أو صحراوية بمجرد كلمة أو لمسة من الطفل الإلهى .. ومنها عجائب ترتبط بالأشجار وكأنها تقدم ثمارها وظلالها وحمايتها للعائلة المقدسة.. ومنها ما يرتبط بالأحجار والصخور كأن ينطبع عليها قدم الطفل أو طباعة شكل الكف حينما امتدت يده لتمنع صخرة من السقوط .. ومنها معجزات شفاء وغيرها .. إنها رحلة طويلة فى المسافات استغرقت أكثر من ألفين وثمانمائة كيلو متر .. وفى المدة الزمنية استغرقت حوالى أربع سنوات إلا شهر واحد.

القيم الإنسانية

رحلة السيد المسيح لأرض مصر تتضمن قيم إنسانية سامية، ففيما هو قد تألم يستطيع أن يعين المتألمين والمتعبين والمحتاجين، لقد ذاق الرب بالجسد فى فترة طفولته آلام الهروب من قوى الشر والظلم وسفك الدماء، ليوجه أنظار العالم كله نحو المتألمين والمهاجرين

واللاجئين والنازحين والهاربين من مخاطر الحروب ومن ويلات الظلم والذين ليس لهم مسكن أو مأوى .. ومنهم الأطفال الذين بلا مأوى .. ولكي يرسخ الرب فينا قيم إضافة الغرباء وإكرام الضيف والاهتمام بالغريب والضيف، ومساندة ومساعدة كل المتألمين والمتعبين والمحتاجين وكل الذين ليس لهم أحد يذكرهم .. وخلال تلك الرحلة ذاقت العائلة المقدسة قسوة الجوع والعطش وتعرضت لظروف مناخية قاسية .. لتوجه أنظارنا نحو اخوتنا فى الإنسانية الذين يتعرضون للمجاعات أو الجفاف أو الكوارث بأنواعها أو الذين يعيشون فى العراء أو الخلاء .. وضرورة مساندة الإنسان لأخيه الإنسان، وتعاون الأفراد والشعوب معًا لمواجهة الظلم والجور، والعنف والمحن والكوارث ..

الرب يوجه أنظارنا وقلوبنا إلى قيم المحبة والرحمة، والتعاون والتضامن، والتكاتف والتكافل .. إنها منظومة من القيم الإنسانية والإجتماعية والروحية نستمدها من رحلة العائلة المقدسة في أرض مصر المباركة ..

opeikandl.com